أثر الاستشراق فى حياة المسلمين

هل كان يستطيع الاستشراق بمفرده – لو كان وحده فى الساحة – أن يحدث التأثير الذي أحدثه بالفعل فى حياة المسلمين ؟

لا أظن !

فكم من المسلمين فى القرن الماضى مثلا كان يمكن أن يطلع على كتاباتهم بلغاتهم التى يكتبون بها : الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو غيرها من اللغات الأوربية ؟

بل ، كم من المسلمين – حتى الذين يعرفون هذه اللغات ويمكنهم الاطلاع على المكتوب بها – كان سيتجه إلى الاطلاع على ما يكتبه المستشرقون قبل قرن من الزمان أو أكثر من قرن ، حيث الناس متمسكون – على الأقل – بقايا دينهم الموروث ، والتعليم إسلامى ، وروح الحياة كلها متوجهة إلى الإسلام ؟

وكم من الذين كان يمكن أن يهتموا بقراءة ما يكتبه المستشرقون بلغاتهم ، كان عرضة لأن يتأثر بما يكتبون ، خاصة والمستشرقون الأوائل كانوا فى الأغلب شتّامين قدّاحين ، يستخدمون من الأساليب ما يستفز المسلم ويحمله على التمسك بدينه فى مواجهة ما يلمسه فى كتاباتهم من طعن وتجريح ؟!

يروى قاسم أمين فى مذكراته (١) ، وقد كان يتقن الفرنسية ، إذ تخرّج فى مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة ، أنه – قبل سفره إلي باريس – قرأ كتابا لأحد المستشرقين الفرنسيين ، يطعن فيه فى الإسلام ، ويتهمه بالإجحاف بالمرأة والافتئات على كرامتها وإنسانيتها ، وأنه يحرمها من كثير من حقوقها ، فغلى الدم فى رأسه ، وأقسم ليكتبن رسالة – بالفرنسية – يرد بها على ذلك المؤلف ، ويفند فيها ما جاء في كتابه من طعن فى الإسلام !

---

(١) نشرتها دار الهلال المصرية .

ولكن الريح غيرّت اتجاهها بعد أن سافر إلي باريس !

ونعود إلى السؤال الذى بدأنا به الحديث . .

هل كان يقدّر للاستشراق بمفرده أن يحدث أثرا في حياة المسلمين ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفى . . فما الذى جعله يحدث كل هذا التأثير فى مدى قرن من الزمان أو أكثر ، بحيث يلوّن فكر « المثقفين » فى أمة بكاملها تقطن من المحيط إلى المحيط ؟!

إنها عدة أمور فى وقت واحد ، متشابكة كلها ، مترابطة ، مدفوعة فى اتجاه معين ، لإحداث أثر معين .

إنها على وجه التحديد : الضغط العسكرى والسياسى للغرب متمثلا فى الاستعمار ، والسياسات التعليمية التى وضعها الاستعمار فى البلاد التى احتلها بجيوشه ، ثم الطلاب الذين خرّجتهم تلك السياسات التعليمية ليكوّنوا الطبقة المثقفة فى تلك البلاد . .

وفى ظل هذه العوامل الثلاثة عمل الاستشراق فكان له من الأثر ما نراه اليوم فى حياة هذه الشعوب .

* * *

فى كتاب « واقعنا المعاصر » تحدثت عن التجربة المصرية فى هذا المجال بقدر من التفصيل ، وقد حدث فى كل بلد من بلاد المسلمين شبيه بما وقع فى مصر ، وإن كانت التجربة المصرية كانت تجرى بتركيز خاص ، باعتبارها بلد الأزهر ، الذى كان فى حينه مركز التوجيه الروحى والثقافى للعالم الإسلامى كله ، فكانت هناك عناية خاصة من قبل الصليبية الصهيونية لإحداث ذلك الأثر فى مصر أولا ، ثم نشره فى بقية العالم الإسلامى بعد ذلك .

تحدثت هناك [1] عن دور الحملة الفرنسية ، وقلت إنها كانت حملة

---

(١) فى كتاب « واقعنا المعاصر » فصل « آثار الانحراف » .

صليبية فى حقيقتها . فقد حاولت تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها (لولا ثورة علماء الأزهر ، والشعب معهم ، تلك الثورة التى أدت إلى خروج الحملة من مصر قبل أن تستكمل مهمتها) ثم إنها جاءت معها بمن يبعث الفرعونية ، لزلزلة الولاء للإسلام ، ومحاولة وصل المصريين بتاريخهم الفرعونى ، بدلا من تاريخهم الإسلامى ، كما قال أحد المستشرقين الصرحاء[1] : « إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلي عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات » !

ثم جاء محمد على فتمم ما كانت تبغيه فرنسا من حملتها ، وكان أخطر ما فعل هو سياسة الابتعاث التى اتخذها ، بإرسال شبان صغار لم ينضجوا بعد ، إلي فرنسا خاصة وإلى إيطاليا كذلك ، ليتعلموا هناك ، فيعودوا محمّدين بما تحمله البيئة التى أرسلوا إليها من أفكار تلوث معتقداتهم ، وتذيب شخصياتهم ، فيكونوا نواة « للتغيير » الذي قال عنه المنصرون فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » : « ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية فى نفوس منتحليها ، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوربا ، وتتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادى ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها »[2] .

ثم جاء الاحتلال البريطانى فمكث طويلا وأفسد كثيرا في كل مجالات الحياة الإسلامية ، ولكن أخطر ما فعله كان السياسة التعليمية التى وضعها

---

(١) فى كتاب « الشرق الأدنى ، مجتمعه وثقافته » نشر مشروع الألف كتاب بالقاهرة .

(٢) من كلام شاتلييه فى مقدمة الكتاب (سبقت الإشارة إليه) .

القسيس دنلوب ، لتخريج أجيال من المسلمين لا تعرف شيئا من حقائق الإسلام، ولا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات التى يثيرها أعداء الدين [1]

* * *

في هذه الأجواء عمل المستشرقون ، فكان لهم ذلك الأثر الذى أحدثوه فى أفكار المسلمين ، والذى لم يكونوا ليبلغوا شيئا منه لو كانوا وحدهم فى الساحة يواجهون المسلمين !

إن تنحية الشريعة كانت أمراً بالغ الخطورة فى مجرى الأحداث التى وقعت فى العالم الإسلامى . وقد كانت الصليبية الصهيونية تعرف هدفها جيدا من تنحية الشريعة فى كل بلد إسلامى دخلت إليه .

فالشريعة – بادئ ذى بدء – كانت حاجزا ضخما بين الاحتلال الصليبى الصهيونى وبين أهدافه من احتلال العالم الإسلامى . وكما ذكرت فى أحد الكتب السابقة ، فقد كانوا يريدون فى مبدإ الأمر تنصير المسلمين ، وكان تطبيق حد الردة يحول دون ذلك ، وكانوا يريدون نشر الفاحشة وكان تطبيق حد الزنا يحول دون ذلك ، وكانوا يريدون أن ينشروا الخمر ، وكان تطبيق حد الخمر يحول دون ذلك . وكانوا يريدون استغلال أموالهم بالربا وكان تحريم الربا فى الشريعة الإسلامية يحول دون ذلك .

ثم إن الشريعة – إلى جانب ذلك – كانت خطرا على الاحتلال من جهتين اثنتين على الأقل : الأولى حثها على الجهاد – وهو أشد ما تفزع منه الصليبية الصهيونية من أمور هذا الدين – والثانية توكيد إحساس المسلم بإسلامه، ومن ثم استمساكه به ، والاعتزاز به ، إذ أنه يعطى المسلم إحساسا بالتميز على كل الخلق، لأن شريعته ربانية وشرائع الناس بضاعة بشرية لا ترقى إلي ما جاء من عند الله ، فيكون هذا – كما عبر جرونيباوم – حاجزا ضخما بين المسلمين وبين الذوبان فى الغرب ، الذى يشتهيه المحتلون الغاصبون .

---

(١) انظر التفصيل فى كتاب « واقعنا المعاصر » .

ولكن تنحية الشريعة – على كل ما فيه من شر – لم يكن ليؤتى ثماره الخبيثة كلها لولا السياسة التعليمية (والإعلامية) التى اتبعها الاحتلال فى بلاد الإسلام .

كان المطلوب تخريج أجيال لا ترى فى وجود المستعمر فى بلادها دافعا إلى « الجهاد » .. الجهاد الإسلامى بالذات المتصل بالعقيدة مباشرة ، والذى يستمد قوته من اتصاله بالعقيدة . أما الجهاد « السياسى » – إذا حدث فى يوم من الأيام – فأمره أهون : لقاءات ، ومفاوضات ، ومساومات ، وفى كل مرة يخرج المحتل الغاصب منتصرا على المغلوبين المقهورين .

وكان المطلوب تخريج أجيال لا ترفض الذوبان فى الغرب ، بل تتقبله على أساس أنه وسيلة للخروج من التخلف ، والسير نحو الحضارة والتقدم والرقى .

وكان لابد لتخريج تلك الأجيال من سياسة تعليمية تقتل اعتزاز المسلم بإسلامه ، وبلغته ، وبتاريخه ، وبأمجاده ، وتزرع بدلا منها انسلاخا من الدين ، وإعراضا عن اللغة ، وانخلاعا من التاريخ ، وجهلا وتشويها لكل ما يعتز به المسلم من أمجاد .

وكان منهج دنلوب وافيا بالأغراض كلها التى أرادها الاحتلال . وخرّج تلك الأجيال المطلوبة ، بطريقة بالغة الخبث ، بالغة الشر ، بالغة التأثير ..

وجاء « التلاميذ » الذين خرّجهم دنلوب .. تلاميذ الاستعمار .. جاءوا وقد أعدُّوا إعدادا متقنا ليحملوا « رسالتهم » ! رسالة الانسلاخ من الإسلام ، والذوبان فى الغرب .. ففتحوا قلوبهم وعقولهم لما يبثه المستشرقون من أفكار .. فكان لهم منذئذ ذلك التأثير الذى أحدثوه في حياة المسلمين !

* * *

إن المسلم الذى عرف ربه ، وعرف دينه ، وعرف رسوله ﷺ ؛ من مصادر العلم الإسلامية الأصيلة : الكتاب والسنة وما حولهما من شروح وتفاسير ، لن ينظر إلى الغثاء الذى يفرزه المستشرقون فى أمور العقيدة ، والذى لا يزيد عما كان يقوله المشركون فى مكة وقت ظهور الإسلام ، اللهم إلا زيادة فى السخف ،

وزيادة فى الحقد على الإسلام والمسلمين ، وستمتلئ نفسه تقززا مما يقرأ من كتاباتهم ، إذا اتجه إلي قراءتها أصلا ، وليس هناك أصلا ما يدعوه إلى الاتجاه إليها!

والمسلم الذى قرأ تاريخه في مصادره الإسلامية ، لن ينظر إلى الغثاء الذى يفرزه المستشرقون حول هذا التاريخ بما فيه من مغالطات والتواءات فى تفسير الأحداث ، وتركيزٍ على الأسود وإغفالٍ للأبيض فى ذلك التاريخ .. وهو لن يغمض عينيه عما وقع فى هذا التاريخ من انحرافات وانتكاسات وأعمال لا تليق ببنى الإنسان ، ولكنه سيراها فى مواضعها من اللوحة الكبيرة البيضاء ، التى يغلب بياضها على سوادها ، فيستنكرها – ويجب عليه أن يستنكرها لحساب ربه ولحساب دينه – ولكنه يظل يعتز بهذا التاريخ فى عمومه ، لأنه أنصع تاريخٍ لأمةٍ درجت على هذه الأرض ، ولأن ما فيه من السواد وقع مثله وأبشع منه فى كل الأمم بلا استثناء ، أما ما وقع فيه من مدارج الرفعة فبعضه على الأقل لم تصنعه أمة فى التاريخ ...

والمسلم الذى عرف دينه وعرف تاريخه من مصادره الإسلامية الأصيلة سيأسى ولا شك لحال المسلمين فى الوقت الراهن ، ومدي بعدهم عن حقيقة الدين وإن تشبثوا بمظاهر منه ، ومدى تخلفهم عن عصرهم فى جميع الميادين : السياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية ، ولكنه سيعلم ،ولا أن السبب الأول والأكبر لهذا التخلف هو التخلف العقدى الذي وقع فيه المسلمون ، وسيعلم ثانيا أن الطريق للخروج من هذا التخلف هو العودة لحقيقة هدا الدين ، تلك الحقيقة التى أخرجت ذات يوم « خير أمة أخرجت للناس » والتى صنعت حضارة فريدة فى التاريخ .

والمسلم الذى عرف دينه وعرف تاريخه سينظر إلى الحضارة الغربية نظرة الأجيال الأولى من المسلمين للحضارات الجاهلية التى كانت تحيط بهم : فيها أشياء نافعة يستفيد بها من أجل ترسيخ قدمه فى الأرض ، وفيها مفاسد ومهاوٍ وموبقات . فيأخذ النافع الذى يستفيد به ، ويطوّعه لعقائده ولقيمه ولمبادئه

ولمفاهيمه ، وينظر باستعلاء المؤمن إلي المفاسد والمهاوى والموبقات ، فيبتعد عنها ويحاذر أن يقع فيها . . فيكتب له الفلاح فى الدنيا والآخرة .

* * *

أما «المسلم» الذي يتربى فى أحضان السياسة التعليمية التى وضعها القسيس دنلوب لمصر الإسلامية ، (ومثيلاتها فى العالم الإسلامى كله من المحيط للمحيط) فكيف يكون موقفه من تلك القضايا وتلك الأحداث ؟!

إنه لم يعرف دينه من مصادره الإسلامية الصحيحة ، ولكن أعطيت له صورة مشوهة عنه وعن أهدافه وعن آثاره فى واقع الأرض .

ولم يعرف من تاريخه إلا السواد الذى أبرز أمامه بينما أخفى عنه كل بياض الصورة فلا يرى فى تاريخه إلا ظلمات . .

ولم يعرف من أسباب تخلفه إلا أنه ناشئ من الدين ! من الإسلام بصفة خاصة !

ولم يعرف له مخرجا مما هو فيه من تخلف إلا اتّباع أوربا ، واللهاث خلفها للحاق بها . . وهيهات !

فهل تكون لدى ذلك «المسلم» ذرة من المناعة ضد السموم التى يفرزها المستشرقون ؟ بل هو مستهدف لها بطبيعة تكوينه العقلى الذى نُشّئ عليه فى مدارس القسيس !

وهؤلاء هم «المثقفون» . . إلا من رحم ربك !

لقد أخبر الرسول ﷺ أن هذه الأمة ستمر بها محنة عاصفة تكاد تقتلعها من جذورها حين قال ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها» قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : «بل أنتم يومئذ كثير . ولكنكم غثاء كغثاء السيل» (١)

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

ولقد صارت الأمة بالفعل غثاء كغثاء السيل كما أخبر الرسول ﷺ ، إلا الطائفة التى أخبر عنها عليه الصلاة والسلام أنها لا تزال ظاهرة على الحق : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك »(١) .

ولكن أغثى ما في هذا الغثاء هم أولئك « المثقفون » ، الذى تتلمذوا على أفكار المستشرقين !

* * *

إن هؤلاء هم خلاصة السم الصليبى الصهيونى كله ، وَعَوْا ذلك أم لم يعوه . . .

ولينظروا نظرة « موضوعية » إلى أعمالهم وأفكارهم ومواقفهم !

أين هم من مجرى الأحداث ؟

إن الصليبية الصهيونية تريد محو هذا الدين من الأرض ، أو إن عجزت عن ذلك – وهى عاجزة لا محالة – فليكن هذا الدين فى أصغر حجم ممكن : علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا صلة لها بواقع الحياة .

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية تريد ألا يرجع المسلمون إلي إسلامهم يحكّمونه فى واقع حياتهم ، ويرجعون إليه فى الكبيرة والصغيرة ، ويجعلونه منبعا ومرتكزا لتصرفاتهم ومواقفهم . .

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية تريد أن يذوب المسلمون فيما يسمونه « الحضارة الغربية » فلا تكون لهم شخصيتهم المتميزة المستمدة من دينهم ، والتى يقفون بها فى وجه الغرب ، وأطماعه الاستعمارية ، التى تتخذ شعار « العولمة » حينا ، وشعار العالم الذى أصبح كالقرية الواحدة حينا ، والاتفاقيات الاقتصادية التى

---

(١) رواه مسلم .

تخنق البلاد الضعيفة لتزيدها ضعفا بينما المستغلون المتجبرون يزدادون غنى وصلفا . .

فأين يقف «المثقفون» فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية تريد أن تنحل أخلاق المجتمع الإسلامى ويغرق في الفوضى الجنسية التى تحل عزيمة الأمم ، وتشغلها عن مهمات الأمور إلي سفاسفها، ومن أجل ذلك تنادى «بتحرير» المرأة على النحو الذى يجردها من دينها وخلقها وتقاليدها ، ويطلقها متبرجة تبغى الفتنة وتخوض فيها . .

فأين يقف «المثقفون» فى هذه القضية ؟

والصليبية الصهيونية – والصهيونية خاصة كما أقر سارتر في كتابه «اليهود وأعداء السامية»(١) وكما أقر لنين من قبل(٢) تريد أن تضع «العقلانية» في موضع الوجدان الدينى ، فيحتكم الناس إلى العقل وحده فى كل الأمور ، سواء أكانت من اختصاص العقل أم لم تكن ، وسواء أكان العقل يصلح للإفتاء فيها أو لم يكن(٣) . . وقد أقر سارتر . ولينين من قبل – أن القائم على نشر هذا المذهب هم اليهود ، فقالا : إنه طالما كان هناك وجود للدين ، وطالما كان الدين مرجعا يرجع إليه الناس فى تصرفاتهم . فسيقع تمييز مجحف على اليهود ، لأن غير

---

(١) الكتاب في لغته الأصلية – الفرنسية – عنوانه «تأملات فى المشكلة اليهودية» صدر عام ١٩٤٨ ، وترجم إلي الإنجليزية بعنوان Anti - Semite and Jew أعداء السامية واليهود .

(٢) فى كتيب بعنوان حل المشكلة اليهودية .

(٣) العقلانية التى يدعو إليها ليست هى مجرد إعمال العقل فى الأمور التى تحتاج إلى تفكير وروية ودراسة ونظر وتخطيط ، فهذه من لوازم الحياة البشرية ولا غنى للإنسان عنها ، وقد دعا الإسلام إلي التفكر والتدبر فى آيات الله فى الكون ليؤدى ذلك إلى الإيمان بالله . والتفكر في تلك الآيات من جانب آخر لاستخلاص السنن التى يجرى الله بها أمور الكون المادى ، مما نشأ عنه فى حياة المسلمين إيجاد المنهج التجريبى فى البحث العلمى وما أدى إليه من تقدم هائل فى العلوم، والتفكر فى السنن التى يجرى الله بها أمور البشر فى الأرض لإقامة مجتمع سليم ، والتدبر فى أمور الشريعة لاستنباط الأحكام لما يجد فى حياة الناس من أمور مما أدى إلي ثروة فقهية أصولية هائلة ، والتفكر فى التاريخ لرؤية تحقق السنن الربانية التى لا يتسع عمر الفرد لرؤيتها فيراها متحققة فى آماد التاريخ . . ولكن العقلانية التى يدعون إليها هى قطع كل صلة للإنسان بعالم الغيب والتفرغ لعالم الشهادة فى حدود ما تدركه الحواس !! (انظر فصل العقلانية فى كتاب : مذاهب فكرية معاصرة) .

اليهودى سيشير إلي اليهودى ويقول : هذا يهودى ! فيستثير بذلك مشاعر الكره التى يتوجه بها الناس دائما إلي اليهود [1] ، فيقع عليهم تمييز مجحف . أما إذا الغى الدين ، واحتكم الناس إلى « العقل » ، فعقل اليهودى كعقل غيره من البشر، وعندئذ لن يقع تمييز مجحف على اليهود ، ويستطيعون أن يعيشوا فى المجتمع البشرى آمنين !

وأيا كان الأمر فقد اتجهت هذه العقلانية (الأوربية) منذ مولدها إلي معاداة الدين ، والتنديد به ، والتنديد بمعتنقيه ، والدعوة إلى خلعه خلعا كاملا ، أو في القليل تحجيمه بحيث لا يعود « مرجعا » يرجع إليه الإنسان فى تصرفاته الواقعية ، حتى إن بقى وجدانا مستسرا فى الضمير . .

فأين يقف « المثقفون » فى هذه القضية ؟

من الواضح أن هناك تطابقا كاملا فى كل هذه القضايا بين « المثقفين » وبين ما تريده الصليبية الصهيونية تجاه الإسلام . . فهل يحدث ذلك اعتباطا ؟!

ولا نقول مع ذلك إن كلهم عملاء ! . . حاشا !

ولكن نقول إن الغذاء المسموم الذى تغذت به نفوسهم وعقولهم وأرواحهم، يجعلهم تلقائيا يقفون هذه المواقف التى تطابق ما يريده الأعداء !

ولقد قام المستشرقون بالدور الأكبر فى هذا الجهد ، بما يكتبون من كتابات تشوه صورة الإسلام فى نفوس أولئك الذين يتتلمذون عليهم ، ويأخذون عنهم أمور هذا الدين !

* * *

وأخيرا يجئ دور أولئك التلاميذ !

لو بقى المستشرقون يقولون – بلغاتهم – ما يقولون ، وتلاميذهم يتأثرون بهم فى ذوات أنفسهم وكفي . فالخسارة ستكون منحصرة فى أولئك التلاميذ الذين خسروا أنفسهم ، وخسرتهم أوطانهم ، واعتبروا فى حساب أوطانهم

---

(١) لم يبينا لماذا يتوجه الناس إليهم بالكراهية !

« مفقودين » ، وإن توهموا هم فى أنفسهم أنهم « القادة » الذين يقودون بلادهم إلى الخير والبركة والحضارة والتقدم : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾

[الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤]

ولكن هؤلاء التلاميذ لم يكتفوا بما فعلوه بأنفسهم ، بل سعوا إلى نشر ما تجرعوه من السموم على بقية الناس . وهنا كانت المصيبة الكبرى التى أصابت الأمة منهم ، فقد ضلوا ثم أضلوا كثيرا . .

إن أولئك المستشرقين حين يكتبون بلغاتهم فلن يقرأهم القارئ العادى الذى لا يعرف لغة أجنبية ، أو لا يتقنها إلي الحد الذى يتناول ثقافته عن طريقها . أما هؤلاء التلاميذ فإنهم يكتبون بالعربية ، لغة القارئ العادى . . لغة عموم المتعلمين من هذه الأمة . . ومن هنا . . من هذه النقطة بالذات بدأ التأثير السام ينتشر وتتسع دائرته ، ليشمل أفواجا من الناس بعد أفواج ، ويشمل أبعادا وآمادا ما كان له أن يبلغها قط لولا « جهود » اولئك التلاميذ !

ولم تكتف الصليبية الصهيونية المسيطرة على العالم الإسلامى بتكوين هؤلاء التلاميذ ، واحتضان من رأت فيه من المزايا ما يستطيع به التأثير فى الآخرين ، كما احتضنت قاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد ، وطه حسين، وعلى عبد الرازق وعشرات غيرهم [١] . . إنما عملت على تكبيرهم فى نظر الجماهير بالدعاية لهم ، وترديد ذكرهم ، وإتاحة وسائل الإعلام لهم لينشروا أفكارهم ، وإضفاء صفات البطولة والعبقرية عليهم ، ليزداد تأثيرهم فى الجماهير المتولهة المشدوهة التى جبلت كما يقول كارليل على عبادة الأبطال !

ولا شك أن الجيل الأول – على الأقل – من أولئك التلاميذ كان موهوبا حقا فى جانب من الجوانب ، فإذا سلطت الأضواء على موهبته ، فقد تضاعف حجمها فى حس الجماهير ، وصار لها من التأثير أضعاف ما كان يمكن أن تصل

---

(١) اقرأ عن هؤلاء إن شئت فى كتاب « واقعنا المعاصر » .

إليه بجهدها الخاص ، لو تركت وحدها – بلا سند – مع الجماهير ! ،ولكن وسائل الإعلام – والصحافة خاصة فى تلك الأيام [1] – كانت من أشد الوسائل التى صنعت من أولئك التلاميذ شخصيات خرافية ؛ لم يجد الزمان بمثلها في التاريخ ، وجعلت لهم بدورهم تلاميذ يقتفون آثارهم ، ويقلدونهم ، ويحاولون أن يصلوا إلى شئ مما وصلوا إليه ، ولو كانوا أقل من «أساتذتهم» مواهب ، ولو كانوا من الضحالة بحيث لا يستقيم لهم عود ، ولا يستقيم لهم وجود ! ولكنهم يستمدون من أجهزة الدعاية ما يسد عجزهم وما يرأب صدعهم ، لتتسع دائرة الفساد والإفساد فى جسم الأمة الكبير !

* * *

والآن ماذا فعل التلاميذ فى الجيل الماضى ، وماذا يفعل تلاميذهم فى هذا الجيل ؟

إنهم – بوعى منهم وقصد أو بغير وعى ولا قصد – يقومون بالمطلوب كله!

المطلوب الأعظم هو زحزحة الأمة عن ركيزتها الكبرى المتمثلة فى هذا الدين ، لتقيم بنيانها على شفا جرف هارٍ لا يصمد فى معركة ، ولا يثبت فى صراع ، ولا يجدى فى مواجهة .

والمطلوب تخريج أجيال من الشباب خاصة ، لا هدف لهم ولا وجهة ، ولا همة ولا عزيمة ، يدورون فى التيه .

والمطلوب حل الأخلاق ، وإطلاق الفتيان والفتيات هائمين على وجوههم ، يشغلهم الدنس الذى يعيشون فيه ويعيشون من أجله عن عظائم الأمور ، وعن تحمل المشقات التى يحتاج إليها البناء والتشييد ، فى أمه تحتاج – لكى تعوض تخلفها – إلى كل ذرة من جهد ، وكل لحظة من وقت ، تقضيها فى العمل الجاد الهادف فترات متطاولة حتى تحقق لها وجودا حيا فى حلبة الصراع .

والتلاميذ يقومون بهذا كله !

---

(١) لم تكن الإذاعة قد وحدت حينذاك ولا التلفاز .

منهم المأجور الذي يقوم بما يقوم به لقاء أجر معين .. مالاً كان أو وجاهة أو سلطانا .. أو شهوات . ومنهم المستغفل الذى يظن نفسه يفعل الخير ، وينشر النور ، وهو غارق فى الظلمات !

كلاهما يؤدى دوره فى رحزحة الأمة عن الإسلام !

﴿ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ [الأنعام : ١٣٢]

* * *

بل إن بعض التلاميذ قد فاقوا أساتذتهم « الكبار » من المستشرقين أنفسهم! وأبدعوا (!) بما لم يكن فى طوق الأساتذة الكبار أن يفعلوه ! فقالوا فى حق الإسلام والقرآن والرسول ﷺ والمؤمنين ما كان يتحرج بعض المستشرقين من قوله، ودعوا بدعوات مكشوفة فى شعرهم ونثرهم وقصصهم ومسرحياتهم وتآليفهم إلى الانسلاخ جهرة من هذا الدين وتحطيمه ، بينما كان المستشرقون – لأسباب فنية » ! – لا يتبجحون بالدعوة الفاجرة المكشوفة ، وإنما يتسترون وراء البحث العلمى ليصلوا إلي ما يريدون !

ورضى المستشرقون عن تلاميذهم درجات من الرضى .. حتى إن بعضهم قد استغنى بتلاميذه عن الجهد المباشر فى الكتابة والتاليف ، فقلّ فى هذه الأيام ما ينتجون من الكتب التى تسعى إلي تشويه صورة الإسلام فى نفوس المسلمين ، وتركوا ذلك لتلاميذهم ، وتفرغوا هم للمهمة الأخرى التى يقومون بها لحساب الصليبية الصهيونية ، والتى اشتدت الحاجة إليها بعد الصحوة الإسلامية المباركة، وهى مهمة الدراسة الدقيقة لكل ما يحدث فى الساحة من حركات ، وكل ما ينبثق من أفكار ، وكل ما يتوقع فى المستقبل القريب أو البعيد من الأحداث ، وكتابة التقارير المفصلة عن هذه الأمور ، سواء نشرت فى الكتب ووسائل الإعلام الأخرى (وهى الأقل) أو بقيت « تقارير سرية » تؤدّى لأولى الشأن وحدهم ، ليتدبروا أمرهم ، ويقرروا قرارهم بالنسبة لهذا الخطر العائد الذي لم يكن فى حسابهم أن يعود ، رغم كل معرفتهم بهذا الدين ، ومعرفتهم – كما قال جب –

بأنه ينبعث فجأة دون أن تعرف السبب فى انبعاثه ، ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث منه !

والمتوقع أن يظل المستشرقون فى عملهم هذا لا ينقطعون عنه ، لأنه لا غنى لدولهم عنه :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة : ٢١٧]

أما الأعمال الأخرى فالبركة فيمن أنجبوهم من التلاميذ ، يكفونهم مئونة الجهد ، ويريحونهم من عناء التفكير !

obeikandl.com